

كتب بالعربية

سفر الاختفاء

ابتسام عازم

بيروت؛ بغداد: منشورات الجمل، ٢٠١٤. ٢٤٠ صفحة.

هو صديق لعلاء الفلسطيني الذي يعمل مصوراً تلفزيونياً مستقلاً، ويفضل عمله هذا لأنه يعطيه دخلاً جيداً يعينه على إكمال دراسته في الإعلام في جامعة تل أبيب. تربط الاثنان علاقة مريحة نوعاً ما. فعلاء يدخن الحشيشة مع أريئيل أحياناً، ويتسامر معه، ويتناقشان معاً في السياسة والمواقف البارزة. وعلاء الذي يسكن في طبقة تحت شقة أريئيل لا يتردد في البوح برأيه عن أشكال الجنون الذي تمارسه إسرائيل على الفلسطينيين. يسأل أريئيل: "لماذا تسكن شوارع لا تحبها وتجلدك؟" ويجيب علاء: "لأن هذه فلسطيني، وأريد أن أسكن أينما يحلولي حتى في الشوارع التي تجلدي. لا أريد أن أبقى في غيتوهاتنا لأنني لست غريباً عن هذا المكان." لا يطيق علاء أسماء الشوارع المزيفة، ولا الحكايات الحديثة التي لم تأت إلا بحقائب سفر جاهزة جلبها الإسرائيليون معهم يوم أتوا لاحتلال البلد.

ماذا لو اختفى

الفلسطينيون؟

أفاقت إسرائيل على نبأ اختفاء الفلسطينيين من الأراضي المحتلة كافة. تتسلل هذه الحكاية الغامضة إلى داخل إسرائيل وشوارعها. يقف المجتمع الإسرائيلي حائراً أمام هذه الظاهرة. هل هذا ممكن؟ ندخل مع شخصيات رواية "سفر الاختفاء" لابتسام عازم إلى عالم من اللامتوقع يتحرك في إطار خيالي نسجت الكاتبة بحساسية تشبه فلسطين وحكاياتها التي لا تنتهي.

تأخذك ابتسام عازم

إلى أماكن من الذاكرة

الفلسطينية قبل الاحتلال

فترى نفسك تعيد حكايات

علاء التي ليست سوى

اعترافات اختار كتاباتها

في دفتره الأحمر محاولاً بذلك إعادة جدته إلى الحياة، فيتحدث عن حبه للنزاع الذي تصير رائحته زخعة مع الوقت، وعن يافا الغارقة في البيارات وعيد النبي روبين وفلسطين التي عرفها قبل الاحتلال.

نرى في الرواية صعوبات العيش في إسرائيل حيث يختنق الفلسطينيون في مجتمع لا يشبه موروثهم ولا حكاياتهم. جبال من الدماء ترشح من على جدران المدن، حيث يعيش القاتل والقَتيل.

"أريئيل" الصحافي

الإسرائيلي يكتب عموداً

أسبوعياً في إحدى الصحف

الأميركية، وهو ابن

"شهيد" في "جيش الدفاع

الإسرائيلي". مفردة الشهيد

هي القاسم المشترك بين

الكيان والفلسطينيين. أريئيل

هو يعلم أنه لا يصدق هذه الترهات كلها بشأن قدسية البلد بالنسبة إليهم، وأحقية وجودهم فيه، لكنه يرى نفسه يمشي في الطرقات التي لا تشبهه إلى جانب أريئيل، ويصرخ في وجهه مؤكداً أن هذه الشوارع كان لها أسماء وحكايات، وأن جدته تعرف سرّ البلد. يكتب علاء حكايات حبه لجدته، ويذكر بفرح النسوة اللواتي أحب، ويدرك بينه وبين نفسه أن الحب وحده لا يكفي أمام عوائق كثيرة قد تتمثل في الدين والحرب والموت. كل مفردة يحللها وحيداً: الموت وجثث الأحياء والشوارع التي يمشي عليها في فلسطين كمن يمشي على جثث متراكمة: عناوين الجرائد؛ الصباحات الباردة؛ سوريالية الصداقة التي تجمع بينه وبين أريئيل الذي يحاول بدوره، استيعاب الحالة، ويسمّي كل ما يقرأه في دفتر علاء: أحاديث عن الذاكرة، وحالة من النوستالجيا لا أكثر. يختفي علاء أيضاً، فيبحث أريئيل عن دليل لهذا الاختفاء الجماعي في شقة صديقه الفلسطيني، لكنه لا يجد شيئاً. حاسوب

مقفل ودفتر سجل عليه علاء رسائل كثيرة لجدته المتوفاة. يقرأ أريئيل الرسائل، ولا يفهم كيف ليافا أن تكون غريبة عنه. الذاكرة التي لا يفهمها ولم يلتق بها سابقاً تضعه أمام أسئلة يحاول جاهداً طمرها كي لا يستيقظ الخوف فيه. أريئيل يدرك أن الخوف الذي يسكن دولة القانون لا يصنع إلاّ حذراً دائماً، والحذر ليس سوى سور للبلد. حالة من الفزع والهلع تصفها لنا الكاتبة فنصدقها بسهولة. خيال مبدع في نسج الحكاية وطمر كل ما يعوق تصديقه. كل شيء كان جاهزاً أمام مخيلتها ليصبح حقيقة: الشخصيات الإسرائيلية؛ وزير الدفاع في خطابه عن سرّ فقدان الفلسطينيين أو اختفائهم؛ القانون الذي حُصّر بعنوان: "المختفي المختفي"، والذي ينص على إسقاط حقوق الفلسطينيين كلها؛ مقالات الصحف التي تتهم الجيش بأنه يقف وراء عمليات الاختفاء هذه، وأخرى تمجد هذا الاختفاء وتعتبره معجزة من الرب مُحنتها دولة إسرائيل؛ حالة الترقب التي أبدعت الكاتبة في

وصفها؛ الشارع الخائف من عرب قد يهجمون من كل ناحية ليقتلوا الإسرائيليين. كل شيء في الرواية تضعه الكاتبة في حالة طوارئ. إسرائيلي يخيفها هذا الاختفاء المفاجئ لجميع العرب: الأطباء الفلسطينيون؛ المعتقلون؛ أصحاب المطاعم؛ كل بشري عربي اختفى من الكيان الإسرائيلي. وعلى الرغم من أعجوبة هذا الاختفاء، فإن الدولة لم تستطع سوى إعطائهم مهلة محددة ليظهروا قبل أن تسقط شرعية وجودهم غير الموجودة أصلاً. "ماذا يعني أن أكون عصرياً؟ أن أنطح؟ أن تهتك عرضي وأنا أصفق لك؟ متى تريد أن تفهم أن تل أبيب هي الكذبة التي صدقها الجميع؟ لم تكن يافا بيارات. هذه الكذبة التي أردتم تصديقها لا تعطيك الحق في قتلنا وتشريدنا. أتدري حتى لو كنّا أكثر البشر تخلفاً في العالم فهذا لا يعطيك الحق بتشريدنا.. إنهبوا وحاربوا أوروبا التي طردتكم وقتلتكم." يتابع علاء: "أنتم تتحدثون طوال الوقت ونحن نسمع نحاول أن نفهمكم أن هناك خللاً في المعادلة.

لجدة فلسطينية والثانية مع صباحات إسرائيلية تحتاج إلى كثير من الطاقة لابتلاعها. جميع الموتى الذين بيننا وبينهم يسقطون في الرواية أمام علاء، ونرى تاريخاً دموياً يظهر بعد سيجارة حشيش مع صديقه الإسرائيلي. يتصالح الفلسطيني هناك مع نفسه فيختار الاختفاء، ومنهم من يختار المعركة، ومنهم من يعيش على هامش الحياة في بلاد عنصرية لم تتصالح مع نفسها بعد.

أخيراً تطرح علينا الكاتبة في روايتها "سفر الاختفاء" سؤالاً واحداً: ماذا لو اختفى الفلسطينيون حقاً؟ هل سيريحون العالم بأسره؟ هل ستختفي معهم أصوات الضعفاء والفقراء في العالم. لا جواب. الرواية لا تدفعك إلى البحث عن الإجابة. تقرأها بنهم وتفكر في قراءتها مرة ثانية.

ميرا صيدأوي
كاتبة فلسطينية

نلاحظ مثلاً مقالة يكتبها دان روبنشتاين، وهو الشيوعي المخضرم، يدين فيها أفعال إسرائيل وسياستها التي قد تكون وراء اختفاء أربعة ملايين فلسطيني. أمّا الإسرائيليون فيظهرون في الرواية فرحين لاختفاء تلك الأعداد كلها من الكائنات العدو التي، بحسب قولهم، تحلم بإبادة إسرائيل. لا يفهم المحتل أنه مسؤول عن ردم كثير من الحكايات التي كانت تحيا قبله وتتنفس، فهو ببساطة يعيش داخل قلعته معتقداً أن العالم الذي جلبه إلى فلسطين هو عالم خير وسلام.

تصير الشخصيات التي اختفت بلاداً لا يمكن لأحد اقتلاع البلد منها. "ماذا نفعل بفلسطين؟" يسأل علاء في رسائله لجذته، وكرر السؤال معه مراراً. تُكيّنا الرواية وتُضحكنا وتثير فينا الرغبة في العيش هناك والبحث مع الباحثين ربما، أو النضال مع المناضلين، أو حتى العيش بين حياتين واحدة

نحاول التحدث بهدوء. نخاف ونثور، نتقرب منكم وحتى نحكم كبشر، نقلدكم نصدقكم ولكننا نعرف أننا نكذب على أنفسنا. أنتم لا تصغون. كل ما نقوله يضيع في الترجمة."

يستقر أريئيل في شقة علاء، يبحث في أغراضه، يشرب نبيذه، ويقرر ترجمة بعض نصوصه إلى العبرية التي شكلت نصاً أدبياً دسماً. هذا ما يحدث عندما يختفي أحدهم فجأة، كل ما كان له يصبح لغيره ببساطة. الفلسطينيون اتخذوا قراراً بالرحيل وترك كل تاريخ البلد الحديث للمحتل. ربما قرر البلد أيضاً ابتلاعهم؛ ربما اختاروا المكوث في فلسطينهم التي يعرفونها جيداً. هكذا ابتلعوا ذاكرتهم وارتحلوا ليتركوا العدو يتقاسم البلد والأرض، ويتصارع فيما بينه على أولوية الوجود وأحقية القانون.

تقدم لنا الرواية أصواتاً متباينة داخل إسرائيل، أصوات مثقفين وأفراد من نواة المجتمع الإسرائيلي.